﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٦٤﴾ [النحل: 64]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ واقعِ الأُمّةِ بعدَ دلالتِها على تاريخ الأُمم قبلَها

لمّا بيّنتِ الآياتُ السّابقةُ ضلالَ الكفّار وجرائمَهُم البَشعةَ، جاءَت هذه الآيةُ لبيان فضلِ اللّه تعالى، بإنزال القرآنِ على النّبيّ ﷺ؛ ليبيّنَ للنّاس الحَقَّ مِنَ الباطل، والهُدَى مِنَ الضّلال.

ومِنَ المناسبة أيضًا: أنّه لمّا ضَربَ في الآية السّابقةِ مَثَلًا بمَن تَقَدَّمَ مِنَ الرّسُل والأمم، وما تَضَمَّنَ ذلك مِنَ الإشارة إلى عاقبة الرُّسلِ مِنَ النّجاةِ والعِصمَةِ، وعاقبةِ الأُمم المُكَذِّبةِ مِنَ العذاب الأليم، استكملَ هنا خطابَ نبيّهِ ببيان الغايةِ مِن وراء إرسالِه، وإنزالِ الكتابِ عليه؛ ليُؤذِنَ له بمثلِ عاقبة الرُّسلِ وأتباعِهم، ويُؤذِنَ لقومِه ممّن لم يُؤمنْ بمثل عاقبةِ الأُمم في الآية السّابقة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِتُبَيِّنَ﴾: أصلُ الكلمةِ مِنَ البَيْن، وهو بُعدُ الشَّيءِ وانكِشافُهُ، فالبَيْنُ: الفِراقُ؛ يُقالُ بانَ يَبِينُ بَيْنًا وبَيْنونَةً[1]، والبَيِّنةُ: الأمرُ الواضِح، ومنه قولُه: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ [الأنعام: 57]، والبَيِّنةُ أيضًا: الحُجَّةُ والدّلالةُ الواضحةُ؛ عقليَّةً كانت أو حِسّيَّةً[2]، والتَّبيينُ: الإيضاح والوُضوحُ[3]، والبيانُ: التَّوضيحُ والكَشفُ[4]، والمقصودُ بالتَّبيين في الآية: تجليَةُ المعاني الخَفيَّةِ، لِغُموضٍ أو سوءِ تَأويلٍ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(2) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (بين).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (بين).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).

2) ﴿ٱخۡتَلَفُواْ﴾: وأصلُ كلمةِ الاختلافِ مِنَ الخِلافَةِ، وهي مَجِيءُ شيءٍ بعدَ شَيءٍ، فيَقومُ مَقامَهُ، يُقالُ: خَلَفَ فُلانٌ فُلانًا؛ أي: قامَ بالأمرِ بعدَهُ[1]، والخَلِيفَةُ: مَنْ يَخلُفُ غَيرَهُ ويَقومُ مَقامَهُ، وسُمِّيَ التَّنازُعُ ونحوُهُ اختلافًا؛ لأنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنَ المُختَلِفِينَ يُنَحِّي قَولَ صاحِبِهِ، ويُقِيمُ نَفسَهُ مَقامَ الَّذي نَحّاهُ[2]، والاختلافُ والمُخالَفَةُ: أن يأخُذَ كلُّ واحدٍ طريقًا غيرَ طريقِ الآخَرِ في حالِه أو قولِه، والخِلافُ أعمُّ مِنَ الضِّدِّ؛ لأنّ كلَّ ضدَّين مُختلِفان، وليسَ كلُّ مُختلفَين ضِدَّين، ولمّا كان الاختلافُ بينَ النّاس في القول قد يقتضي التّنازعَ، استُعير ذلك للمُنازَعة والمُجادَلة[3]، وضِدُّ الاختِلافِ: الاتِّفاقُ والتَّساوِي، واختَلفَ الأمرانِ: لَم يَتَّفِقا، ويُطلَقُ الاختِلافُ على التَّنَوُّعِ[4]، والمقصودُ بالاختلافِ في الآية: التَّنازُعُ في الدِّين وأحكامِه، بأن يأخذَ كلُّ واحدٍ طريقًا غيرَ طريقِ الآخر.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقولُ الحقُّ ﷻ: وما أنزَلْنا عليك القُرآنَ يا مُحمَّدُ ﷺ إلّا مِن أجلِ أن تُبَيِّنَ للنّاسِ - بواسطةِ بياناتِ هذا القُرآنِ - ما اختَلَفوا فيه مِنَ الدِّينِ، فتُرشِدَهم إلى الحَقِّ والصَّوابِ، وأنزَلْنا القُرآنَ هاديًا للقُلوبِ مِن كُلِّ ضَلالةٍ، ورَحمةً في الدُّنيا والآخِرةِ لِقَومٍ يُصَدِّقونَ بما فيه، ويُقِرّونَ بما تضَمَّنَه، ويَعمَلونَ به[5].

القرآنُ الكريمُ هو الفاصلُ بينَ النّاس فيما يتنازعون فيه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(2) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (خلف).
(3) الرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (خلف).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (خلف).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 268، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 404، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 230، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 122، وقال الشّوكانيّ: "الَّذِي اخْتَلَفوا فِيهِ مِنَ التَّوحيدِ، وأحوالِ البعثِ، وسائرِ الأحكامِ الشّرعيَّةِ". يُنظر: الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 208.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطف:

جملةُ: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾[1]، فهي استكمالٌ لخِطابه ﷺ، انتُقِلَ فيه مِنَ الإخبار عن تكليف الأنبياءِ قبلَه، بإرسالِهم بالوحي والبَلاغ، إلى الإخبار عن تكليفِه هو ﷺ ببيان التّنزيلِ وتبليغه، ويدلُّ هذا العَطفُ على معنى التّتميم بينَ المُتعاطِفَين؛ لأنّ القرآنَ نَزَلَ مُتمِّمًا لتلك الرّسالات الّتي بقيَت آثارُها في جزيرة العرب، فأَخْبَرَ عنِ الأصلِ الأوّليِّ، وهو إرسالُ الرُّسلِ، وأتبعَهُ بالأصل التّامِّ الخاتمِ وهو نزولُ الكتابِ على الرّسول ﷺ.

القرآنُ خاتمٌ لِما قبلَه، والخاتم تـامٌّ في نفسه مُتمِّمٌ لغيره

دلالةُ التّعبير بالإنزال:

عَبَّرَ في النّظم الكريم بالإنزال فقال: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، ولم يُعبِّرْ بالإرسال، كما في قوله: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ﴾؛ لأنّه لمّا كان الرّسولُ ﷺ هو الغايةَ الّتي انتهى إليها إرسالُ الرُّسلِ قبلَه، فخُتِموا به، ناسبَ هنا أن يُعَبّرَ بالغاية مِن إرساله هو ﷺ، وهو إنزالُ الكتاب عليه؛ بيانًا للنّاس، فعَبَّرَ بالإنزال دونَ الإرسال.

إنـزالُ الكتابِ مُؤذِنٌ بوثوقيّته، وعصمةِ مَصدرِه

دلالةُ نون العَظمة:

دلّتِ النّونُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا﴾ على التّعظيم للمُنْزِل؛ وهو الله، والمُنْزَلِ عليه؛ وهو الرّسولُ ﷺ، والمُنْزَلِ؛ وهو القرآن.

تعظيمُ المُنْزِلِ والمُنْزَلِ والمُنْزَلِ عليه

دلالةُ تَعَدِّي الفعل (أنزل) بـ(على) دون (إلى):

التّعبيرُ بـ (على) في قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ دونَ (إليك)؛ لأنّ الغرضَ ليس التّنبيهَ على وصول الكتابِ إلى النّبيِّ ﷺ، أو الإخبارَ

تثبيتُ النّبيّ ﷺ وتسليتُه

(1) صافي، الجدول: 14/ 345.

عن جِهتِه الّتي ينتهي إليها في الأرض، بل المُرادُ تثبيتُ شَخصِ النّبيِّ ﷺ، وتسليتُه وتقويتُه وتنشيطُه للبَلاغ، وهذا يُناسِبُه التّعبيرُ بحرف الاستعلاء الدّالِّ على قوّة التّنزيلِ في استحواذه على قَلبِ النّبيّ وضميرِه وشَخصيّتِه، بحيثُ يتهيّأُ به لأداءِ ما كُلِّفَ به مِنَ البيان في قوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾، فكأنّ حَرفَ الاستعلاءِ يُفيدُ أنّ النّبيَّ ﷺ لا يتحرّكُ في أداء ذلك بِعَزمِ نفسِه، بل بَعَزمِ القُرآنِ الّذي أُلْقِي عليه، فهو يتحرّكُ تحتَ ظِلِّه، وينضوي تحتَ عُلوِّه.

دلالةُ تقديمِ الجارّ والمَجرور:

قُدِّمَ الجارُّ والمَجرورُ في قوله: ﴿عَلَيْكَ﴾؛ لدلالة تكريمِ اللّهِ لرسوله، وإعلاءِ قَدرِه؛ لأنّهُ المَعنِيُّ بتبليغ ما أنزلَه اللّهُ تعالى لأُمّتِه.

تكريمُ اللهِ لرسولِه، وإعلاءُ قَدرِه

سِرُّ التّعبير بـ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ دونَ (القرآن) أو (التّنزيل):

التّعبيرُ بـ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ دونَ (القرآن) أو (التّنزيل) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ لمناسبة المَقام قبلَه، فقد أخبرَ في قوله: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أنّ النّبيَّ ﷺ ليس بِدعًا في إرساله، فقد جَرَتْ عادَةُ اللّهِ أن يُرسِلَ الرُّسلَ قبلَه، فناسَبَ هنا أن يَصطفيَ لفظَ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ دونَ (القرآن)؛ ليُشيرَ أنّ القرآنَ ليس بِدعًا في نزوله، فهو على غِرار تلكَ الكُتبِ الّتي أُرسِلَ بها الرّسلُ قبلَ النّبيّ ﷺ، كما كان الرّسولُ على غِرارهم في إرساله، ولم يُعَبِّرْ بالتّنزيل لتفادي التّكرار؛ لأنّ وصفَ التّنزيلِ مفهومٌ مِنَ الفعل في قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾، فلو عَبَّرَ بالتّنزيل لكان تَكرارًا مَمجوجًا، وإطنابًا مُستَهجَنًا، وتحصيلَ حاصِلٍ.

كونُ القرآنِ كتابًا، إشارة إلى دوامِ بقائِه؛ لأنّ المَكتوبَ لا يَبْلَى

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾:

جاء لفظُ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ مُعَرَّفًا بـ (ال) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ للدّلالة على كمالِه، وبُلوغِه الغايةَ العليا في الهِداية، فهو الجديرُ بما يحملُه منها، بأن يُسَمّى كتابًا وحدَه.

كمالُ الكتابِ المُنزَلِ، وبلوغُه الغايةَ في الهِداية

بلاغةُ أسلوبِ القَصر:

لبيان الغاية الجامعةِ مِنَ التّنزيل

قصَدَ النّظمُ الكريمُ إلى تعيين الغايةِ الجامعةِ مِنَ التّنزيل، فعَبَّرَ عن ذلك بصيغة النّفي والاستثناءِ المُفَرَّغِ مِن أعمِّ العِلل؛ أي: ما أنزلْنا عليكَ لِعلَّةٍ مِنَ العِلَلِ إلّا لِتُبَيِّنَ؛ لإفادة معنى القَصرِ على أتَمِّ الوجوهِ وأوفاها[1]، والقَصرُ ادّعائيٌّ[2]؛ لأنّ بيانَ الاختلافِ هو الفائدةُ العُظمى مِنَ الكتاب، وليس كلَّ فوائدِه، ولكن لمّا كانت تلك الفائدةُ تستتبِعُ جميعَ الفوائدِ دونَها، ولا يستتبِعُها سواها، صارت كأنّها بمثابة كلِّ غاياتِه وفوائدِه، ولذا صَحَّ القَصرُ وحَسُنَ.

بلاغةُ التّعريضِ في جملة الاستثناء:

لا يُسيءُ الظّنَّ بالقُرآن أحدٌ إلّا أذَلَّه اللهُ وأضَلَّه

في تركيب قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾، وما أفادَهُ هذا التّركيبُ مِن معنى القَصر، تعريضٌ[3] بأولئك الّذين يتوهَّمون ويزعمون أنّ القرآنَ كتابُ وعظٍ وقَصَصٍ، أو لا يَعدو كونَه كتابَ أدبٍ عالٍ، وبلاغةٍ رفيعةٍ، فيزعمون أنّه ليس كتابَ حُكمٍ وقضاءٍ على ما سِواه مِنَ الكُتُب، وليس فُرقانًا حاسِمًا بين تباينات الأفكارِ، وأشتاتِ العقائد، وحِزَمِ الاختلافاتِ والتّناقضاتِ، فعَرّضَ بتلك الفِئة في سوء ظَنِّها بالقُرآن، وإنزالِها له دونَ مَنزلَتِه، وبَيَّنَ أنّ القرآنَ ليس إلّا كذلك، وليس نازلًا إلّا لذلك ممّا رفضوه وجَرَّدوه منه، ولو جاء الأسلوبُ بغير هذا التّركيب ما أفاد كلَّ هذه المعاني.

دلالةُ اللّامِ في قوله ﴿لِتُبَيِّنَ﴾:

تعليلُ التّنزيلِ بغاية التّبيين

اللّام في قوله: ﴿لِتُبَيِّنَ﴾؛ لتعليل التّنزيلِ بغاية التّبيين[4]، وفي هذا دلالةٌ على أنّ التّنزيلَ مُعلَّلٌ بغاية البيان فيما اختلفوا وسألوا.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 123.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 196.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 196.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 196.

سِرُّ اختيارِ التّبيين دون غيرِه:

البيانُ هو أصلُ الكَشفِ والانجلاءِ

اختيارُ التّبيين دونَ غيره في قوله: ﴿لِتُبَيِّنَ﴾؛ لأنّ البيانَ هو أصلُ الكَشفِ والانجلاءِ، وعُمدةُ الشّرح وإزالة الخفاء[1]، فعَبَّرَ بهذا اللّفظِ لأنّه الأصلُ في استجلاء شُبَهِ الاختلافِ والنّزاعِ، وحَسمِ مادّته، وهو المَذكور في قوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾، وفي اصطفاء لفظ التّبيين هنا تَزكيَةٌ للرّسول ﷺ في حُجّته وبَراهينِ نُبوَّته، إذ هو يَحسِمُ الاختلافَ العتيقَ بينَهم، المُتَجَذِّرَ في أعماق نفوسِهم، بأيسرِ سبيلٍ وأقصَرِ طريقٍ، وهو طريقُ البيانِ، فكلمةُ (البيان) كلمةٌ سهلةٌ ليس فيها تعقيدٌ، فالكَشفُ الّذي يَحصُلُ بها لا يَعسُرُ فهمُه، فلا يَضيقُ عن أحدٍ فيهم أن يتلقّاه بتكلُّفٍ أو استثقالٍ؛ لأنّه بيانٌ يفهمُهُ القَريبُ والبَعيدُ، والمَتفوِّقُ والعاديُّ مِنَ النّاس.

نُكتةُ إيثارِ الفعلِ على المَصدر:

البيانُ هو جانبُ التّكليفِ المَنوطِ بالنّبيّ ﷺ

لم يقُلْ في السّياق الكريم: (إلّا لتبيينِ الذي اختلفوا فيه) فلم يُعَبِّرْ بالاسميّة، كما عَبَّرَ بها في المعطوفات الدّاخلةِ في حيّزِ التّعليلِ في قوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾؛ للدّلالة على جانب التّكليفِ المَنوطِ بالنّبيِّ ﷺ أنْ يفعلَه ويقومَ به، وهو البيان، وللإشارة إلى أنّ القرآنَ لا يَتَبيّنُ بالحُكم والقضاء في مجالاتِ اختلافِهم مِن تلقاء نفسِه، بل لا بُدَّ مِن مُبيِّنٍ له، وقائمٍ به، ينفعلُ به في حَركته وسُلوكِه والأداءِ عنه، وللإيذان إلى أنّه مِن حيثُ كونُه: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ في ذاته، لا بدَّ أنْ يُبيَّنَ حتّى تنجليَ وتنكشفَ خصائصُه الذّاتيّةُ الثّابتةُ مِنَ الهُدى والرّحمة، فالهُدَى والرَّحمةُ فيه يتجلّيان بفعل التّبيين.

دلالةُ تقديمِ الجارّ والمَجرور:

الاهتمامُ والإشفاق

تقديمُ الجارِّ والمَجرورِ ﴿لَهُمُ﴾ في قوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 59، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (بين).

فِيهِ﴾، ولم يقُلْ: (لتبيّنَ الّذي اختلفوا فيه لَهُم)؛ لأنّ ذواتَهم هي المقصودةُ بالبيان، فقدَّمَها عنايةً بها، وحِرصًا عليها في تسريع البيانِ لها، وسَبقِه إليها، فالتّقديمُ للاهتمام والإشفاق، ولإفادة أنّ المقصودَ هو إيصالُ التّبيينِ لهم بغضّ النّظرِ عن مجالِه، سواء كان فيما اختلفوا فيه أو لم يَختلفوا فيه، ممّا احتاجوه.

دلالةُ عوْدِ الضّميرِ في ﴿لَهُمُ﴾:

بيانُ النّبيِّ ﷺ عامٌّ لكلّ الخَلْق

الضّميرُ في: ﴿لَهُمُ﴾ مِن قوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ يفيدُ العمومَ بقرينة حال النّبيِّ ﷺ، وهو إرسالُه بالبيان إلى النّاس كافّةً، ويدخلُ فيه المُختلِفون بالكُفر والضّلال دخولًا أوّليًّا، ولا يُقالُ: إنّ الضّميرَ يعودُ على المُشركين وحدَهم، بقرينة تخصيص الهُدَى والرّحمة لقومٍ يُؤمنون، فيكون تبيينًا لاختلاف الكافرين، وهِدايةً ورحمةً للمُؤمنين؛ الجواب من ثلاثةِ وجوهٍ:

الأوّل: على فرض تخصيصِ الاختلافِ بالكافرين وحدَهم، وهو الاختلافُ في أصل الدّينِ والعقيدةِ، فهذا لا ينفي عمومَ الضّمير في ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾؛ لأنّه يبيّنُ الاختلافَ ويكشِفُه للكافرين والمؤمنين، فهو للمؤمنين تثبيتٌ وعِصمةٌ، وللكافرين تصحيحٌ وإرشادٌ واحتجاجٌ.

الثّاني: أنّه لا إشكالَ في أن يكونَ المرادُ مِن ضمير الجمع في ﴿ٱخۡتَلَفُواْ﴾ العُمومَ أيضًا، بحَملِه على عُموم الاختلاف في أمور الدّنيا والدّين، وهذا مُشتَرِكٌ بين الكافرين والمؤمنين، والرّسولُ ﷺ حاكِمٌ ومُبيِّنٌ لذلك جميعًا.

الثّالث: أنّ المؤمنين لم يكونوا مُؤمنين ساعةَ ابتداء تنزيلِ الكتاب، ولذا فالكتابُ نازلٌ ليُبَيِّنَ الرّسولُ لجميع النّاس أوّلًا ما اختلفوا فيه، حتّى يتأتّى إيمانُهم أصلًا، ويتمَّ لهم، ولذا فالضّميرُ للعُموم، بناءً على هذا الأصل.

سِرُّ التّعبير باسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾:

الغايةُ الأصيلةُ مِنَ التّنزيل حَسمُ الاختلافِ في الدّين

لم يقُلْ في السّياق الكريم: (لتبيّنَ لهُم ما اختلفوا فيه)، بل عَرَّفَ الصِّلةَ بالموصول الخاصِّ (الذي)، فقالَ: ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾؛ إمّا لتعيين مجالِ الاختلافِ وتمييزِه، وهو الاختلافُ في العقائد والمِلل، والاختلافُ على الأنبياء، وهو اختلافُ الدّين؛ لأنّه الغايةُ الأصيلةُ مِن إرسال الرُّسلِ وإنزالِ الكُتبِ، فيكون المُرادُ بالموصول الخصوصَ، وإمّا أن يُرادَ بالموصول العمومُ.

وأوثِرَ ﴿ٱلَّذِى﴾ دون (ما) للنّصِّ على أنّ مجالاتِ هذا الاختلافِ مَحصورةٌ ومَعلومةٌ لديهم، وهي مُهمّاتُ الاختلافِ في أشتات الشّؤونِ الّتي تتحدَّدُ بها المَصالحُ، وتندفِعُ المَفاسِدُ، ولا يمكنُ ذلك إلّا بحسمِها وبيانِها، ولو قِيلَ: (ما اختلفوا فيه) لأوهَمَ الإبهامَ.

نُكتةُ التّعريف بالصِّلة:

الاختلافُ بريدُ الضّلال

مجيءُ مفعول التّبيين مِنَ الموصول وصِلته: ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾، أفاد تعليلَ الفِعل بالصّلة، فسببُ البيان هو اختلافُهم؛ لأنّ اختلافَهم هو سببُ ضلالهم.

مَوقِعُ جملة: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ ممّا قبلَها:

تمامُ البيان مُؤذِنٌ بنزول الهدى والرَّحمة

جملةُ: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ معطوفةٌ على محلّ جملة الاستثناء: ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ﴾؛ أي: للتّبيين والهداية والرّحمة، وهما في محلّ نَصبِ مفعولٍ لأجله، مِنَ الفعل والفاعل: ﴿أَنزَلْنَا﴾، وانتصَبا لاتّحادِ الفاعلِ في الفِعل وفيهما؛ لأنّ المُنَزِّلَ هو اللّهُ، وهو الهادي والرّاحِمُ، ودخلَتِ اللّامُ في: ﴿لِتُبَيِّنَ﴾ لاختلاف الفاعلِ؛ لأنّ المُنَزِّلَ هو اللّهُ، والتّبيينُ مُسنَدٌ للمُخاطَب، وهو الرّسولُ ﷺ[1].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 552.

سِرُّ الجمعِ بينَ الهِداية والرّحمة:

الهِدايةُ والرّحمةُ أثـران مـن آثـار اتّـبـاعِ بـيـانِ الرّسولِ ﷺ

جُمِعَ بينَ الهِداية والرّحمة في قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾؛ لأنّهما أثرُ اتّباعِ تبيينِ الرّسول ﷺ، فالبيانُ كاشِفٌ يهدي، والهدايةُ بريدُ الرّحمةِ والسّلامَةِ، ولذا قَدَّمَ البيانَ أوّلًا؛ فبِهِ تتجلَّى مَواطِنُ الهِدايةِ، ثُمَّ قَدَّمَ الهِدايةَ؛ لأنّها مَحلُّ الأمنِ والسّلامةِ، والدّخولِ في حَيّز الرّحمةِ.

سِرُّ تقديمِ الهُدى على الرّحمة:

الهِدايةُ سببٌ في نزول الرّحمة

قَدَّمَ القرآنُ الكريمُ ذِكرَ الهُدى على الرّحمة في قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾؛ لأنّ الهُدى سببٌ في نزول الرّحمةِ، وللدّلالة على أنّ الرّحمةَ المَذكورةَ في الآية بعدَ الهُدى هي الرّحمةُ الخاصّةُ بالمؤمنين، وليستِ الرّحمةَ العامّةَ.

سِرُّ التّعبير بقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾:

الاجتماعُ وعدمُ الاختلافِ يورثُ الهُدى والرّحمة

لم يقُلْ في السّياق الكريم: (ورحمةً للمؤمنين) أو (ورحمةً للّذين آمنوا)، بل قال: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1]؛ للدّلالة على أنّ المؤمنين أمّةٌ مُجتمِعةٌ اجتماعَ القومِ على الإيمان، ففيه إلماحٌ إلى أنّهم مُتعزِّزون بولايةِ بعضِهم بعضًا، وتَقَوُّمِ بعضِهم ببعض.

وهذا الخِتامُ بتلك القوميّة بديعٌ؛ لأنّه يُشيرُ إلى أنّ المؤمنين لا يصيرون قومًا مُجتمِعين حتّى يَتَحَقَّقوا بالبيان الّذي يَحسِمُ مادّةَ الاختلاف، ويَجتثُّ عوارضَ النّزاعِ بينَهم، وحتّى يتحقَّقوا بوصف الكتابِ مِنَ الهدى والرّحمة، فيهدي بعضُهم بعضًا، ويرحمُ بعضُهم بعضًا، فإذا استَوفَوا في أنفسهم حقيقةَ البيانِ، وحقيقةَ الهُدى والرّحمة، تحقَّقَتْ لهم قوميّتُهم المَصونةُ والمَعصومةُ، بقوّة هذا الكتابِ العظيمِ، الّذي أُنزِلَ لأجلهم حتّى يصيروا به قومًا مُؤمنين، فكأنّه لمّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 197.

ذَكَرَ أنّ الاختلافَ زائلٌ بالبيان في قوله: ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾، أشارَ بذِكر الهدى والرّحمة بعدَه إلى أنّ الاتّفاقَ وعدمَ الاختلافِ يورِثُ الهدى والرّحمةَ، ويُفسِحُ لحضورهما، فإذا زالَ الاختلافُ وحضرَ الهدى والرّحمة، استأهَلَ المؤمنون أن يكونوا قومًا مَوصوفين بذلك.

دلالةُ التّعبير بالمضارع:

تـجـدُّدُ إيـمـانِ المؤمنين في كلّ وقتٍ وحِين

عَبَّرَ القرآنُ الكريمُ بالفعل المضارع: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؛ للإشارة إلى تَجَدُّدِ إيمانِ هؤلاء المُؤمنين فى كلِّ وقتٍ وفي كلِّ حين، فكلُّ عملِ خيرٍ هو تجديدٌ للإيمان.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البيانُ والتّفصيلُ:

التّفصيلُ أعمُّ مِنَ البيان، وهو غايته

التّفصيلُ: هو التّمييزُ بينَ شيئين، بحيث تُقيمُ فاصلًا بينهما، فلا يتداخلان أو يتمازجان، والبيانُ: هو كشفُ الشّيء وتجليَتُه وإيضاحُه باستقلالٍ، من غير اشتراطِ وقوعِه مُقارَنًا بغيره، أو استصحابِ غيرِه معه.

ولذلك فالتّفصيلُ بيانٌ زوجيٌّ أو جَمعيٌّ لمُتعدِّدٍ، والتّبيينُ بيانٌ فرديٌّ لا يَلزَم فيه استحضار معنى الثُّنائيّة أو التّعدّديّة.

والتّفصيلُ هو الانتقالُ بينَ الفُصول والمُقابَلات، والتّبيينُ: هو مُطلَقُ الإيضاح[1]، وعليه: فالتّفصيلُ أعمُّ مِنَ البيان، فهو بيانٌ مَزيدٌ بتحريرٍ وإقالةِ المُبَيَّناتِ بعضِها عن بعض، بحيث لا يُحتَمَلُ معها تداخُلٌ أو التباسٌ، ولا يقعُ عليها إيرادٌ أو إشكالٌ، ولا تفتقرُ لاستيفاءٍ واستتمام، والتّفصيلُ هو غايةُ التّبيين، فلا يمكنُ التّفصيلُ مِن غير بيانٍ، ولكن يمكنُ التّبيينُ مِن غير تفصيلٍ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 59، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (بين - فصل)، وابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 212، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 230.

المُتشابِهُ اللّفظيُّ:

تشابَهَت هذه الآيةُ مع قوله تعالى في نفس السّورة: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النّحل: 89]، والنّاظرُ فيهما يجدُ أنّ كلَّ آيةٍ منهما اختُصَّت بصيغةٍ مِن صِيغ الإنزال، وبما فيها بعدَ قوله: ﴿عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [النحل: 64، 89].

ووجهُ ذلك: أنّ الآيةَ الأولى يسبقُها قولُه تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ الآيات، والمناسبُ لسياقها أن يُعَبَّرَ بالفعل (نَزَّلَ) لتأكيد نزولِ الكِتاب؛ لكن لمّا كان التّعبيرُ بأسلوب القصر (النّفي والاستثناء) فيه كفايةٌ للتّأكيد، ناسبَهُ التّعبيرُ بالفعل (أَنزَلَ)، ولمّا كان المُشركون هُم مَنِ اختلفوا في أمر توحيد الله تعالى، وكان السّياقُ مُتعلِّقًا بالحاضر والمُستقبل، ناسبَهُ التّعبيرُ عنِ البيان بالفعل المضارع، وتخصيصُه بما اختلفَ فيه المُشركون بقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾، ولمّا كان هؤلاء غيرَ مُؤمنين - كما بيّنتِ الآياتُ - ناسبَه بيانُ أنّه لا ينتفعُ بالهُدى والرّحمة إلّا مَن قاموا بالإيمان حَقَّ قيامِه بقوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أمّا الآيةُ الأُخرى فقد بدأت بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ﴾ [النّحل: 89]، ولمّا كان الخِطابُ للرّسول ﷺ، وكان السّياقُ مُتعلِّقًا بالمُسلمين، وكان ظاهرُ السّياقِ أن يُعَبَّرَ بالفعل (أنزل)، لكن لمّا أُريدَ تأكيدُ النّزولِ مَحبّةً مِنَ الله لرسوله وللمسلمين ناسبَهُ التّعبيرُ بالفعل (نَزّل).

ولمّا كان المُرادُ بيانَ عُموم رسالته ﷺ للعالَمين كافّةً، ناسبَهُ أن يكونَ الكتابُ شديدَ البيانِ لكلِّ شيءٍ، وكَون الكتابِ بُشرَى لعامَّةِ المسلمين، فيه مناسبةٌ لعموم الرّسالة.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والعشرون،
سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 26 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-23-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 26 : المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-23-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9758876 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»